

الفكر اللغوي العربي (النشأة والتطور)

Arabic linguistic thought (origin and development)

أ.د. عبد السميع موفق

جامعة محمد البشير الإبراهيمي . برج بوعريريج (الجزائر)

abdessamiaa.mouffok@univ-bba.dz

تاريخ القبول: 2026/01/25

تاريخ الإرسال: 2025/12/21

ملخص:

تختص هذه الدراسة بالبحث في نشأة المصطلح اللغوي العربي فهماً وتقييداً، منذ المرحلة الأولى التي لجأ فيها العرب إلى جمع اللغة وتقنينها، وحين كانت المعجمية العربية تعتمد على السماع والتداول، وكان الناطقون بالعربية يرسلون الكلام على سليقة وسجية، ومنذ ذلك الزمن تلمّس الباحثون والدارسون مدى تعلّق اللسان العربي بالفكر، أو ما يسمى اليوم بـ: تلازم مقومات التعبير بمقومات التفكير، وهذا ما برّر لكثير من الدارسين المعاصرين الأخذ بعدم اعتبارية العلاقة القائمة بين اللفظ العربي ومدلوله، عكس ما هو عليه المنطق اللغوي الغربي عموماً. وقد أشارت الدراسات العربية المهمة بالتفكير اللساني العربي إلى أن اللغة العربية أخذت من الواقع العربي المعيشي، ولا أدلّ على ذلك من المصادر اللغوية التاريخية التي تجمع على أن اللغة العربية جمعت من ثمانية قبائل عربية، وذلك ما يعزّز جدية البحث اللغوي فيما وراء اللغة (métalangue) وكذلك علاقة اللغة بالفكر، وعلى هذا أولت الجهود العربية القديمة والحديثة عناية خاصة لعوامل نشأة المصطلح في اللغة العربية، فكيف كان البحث في ميدان التفكير اللساني العربي عموماً مركّزاً على الشحنة الدلالية للفظ وبنيته؟ وما مدى تميّز المنطق الطبيعي اللغوي العربي عن منطق جميع لغات العالم؟

الكلمات المفتاحية:

المصطلح العربي، المعجمية العربية، التفكير اللساني، العلاقة بين الدال والمدلول، ما وراء اللغة.

Abstract:

This study focuses on investigating the emergence of the Arabic linguistic term in terms of comprehension and codification, since the initial stage when Arabs resorted to collecting and codifying the language. During that period, Arabic lexicography relied on oral transmission and circulation, and Arabic speakers used to speak according to their natural linguistic instinct. Since that time, researchers and scholars have recognized the extent to which the Arabic tongue is connected to thought, or what is called today: the correlation between the elements of expression and the elements of thinking. This has justified many contemporary scholars' adoption of the non-arbitrariness of the relationship between the Arabic word and its signified, contrary to Western linguistic logic in general. Arabic studies concerned with Arabic linguistic thought have indicated that the Arabic language was derived from the lived Arab reality, as evidenced by historical linguistic sources which unanimously agree that the Arabic language was collected from eight Arab tribes. This reinforces the seriousness of linguistic research into metalanguage, as well as the relationship between language and thought. Accordingly, both classical and modern Arabic efforts have given special attention to the factors behind the emergence of terminology in the Arabic language. How was research in the field of Arabic linguistic thought generally focused on the semantic load and structure of the word? And to what extent does the natural linguistic logic of Arabic distinguish itself from the logic of all world languages?

Keywords: Arabic Terminology, Arabic Lexicography, Linguistic Thought, Relationship between Signifier and Signified, Metalanguage.

مقدمة:

لقد عالج الفكر العربي قضية اكتساب اللغة من حيث هو تحصيل مباشر يرتبط آليا بتجربة الإنسان مع اللغة، حيث يكون الحدث الكلامي مادة للاكتساب وموضوعا له في الوقت ذاته، أي أنه مضمون التحصيل (ملكة اللغة) في ذاته، قبل أن تصبح مادة للكلام وفي هذا المسار اكتشف رواد التفكير اللغوي في الحضارة العربية أسرار تقنيات الاكتساب المتعددة، فراح كل واحد منهم يفسرها بحسب تصوره وتراكماته المعرفية، فمنهم من يعدّ تحصيلها من قبيل: الارتياض والتمرّس والدربة، ومنهم من اعتبرها من المعادة والتكرار

والعادات. ولمسوا من قرب مشكلة اكتساب الآليات عن طريق المنعكسات: البسيطة منها والشرطية ونفذوا إلى أهمية التلقين في اختزان قوالب المنعكسات، وتطرقوا إلى التناسب الطردي القائم بين كثافة الاختزان والقدرة اللسانية على التصرف والابتكار.

هكذا توصل البحث اللساني في ميراث الفكر اللغوي عند العرب إلى استكناه الركائز النظرية في معالجة مشكلة الاكتساب والتحصيل التي تقوم على دعائم وراثية وأخرى تجريبية عملية. وعند محاولة تحديد الظاهرة اللغوية انطلاقاً من ملابسات اكتسابها؛ فإن التراث العربي في هذا المضمار احتوى زخماً نظرياً معرفياً ثرياً، يتصل بالجانب العملي من معالجة مشكل الاكتساب، أي بطرائق التحصيل وكيفياته مع ما يحيط به من مستلزمات الممارسة والتواصل. ويجمع بين تلك الإليات تظافرها حول تحديد الظاهرة اللغوية سواء في ذاتها باعتبارها بناء متكامل، وجهازاً له مفاعلاته العضوية والانطوائية، أو بالنسبة إلى مستعملها الإنسان بوصفها مادة وموضوعاً في تفاعله مع الوجود لضرورة بيان النسب المعقودة بين الإنسان وبعده اللغوي حتى يتسنى تحديد الظاهرة اللسانية في رحم هذا الانعقاد. وقد رفضت بعض الأبحاث اللسانية المعاصرة اعتبار أن اللغة عادة تكتسب بالتقليد والمحاكاة، وأكّدوا أنها معطى ماهي يولد مع الإنسان منذ لحظته الأولى، وهي نمط غريزي وسلوك فطري.

هذا ما ولّد مواضع داخل اللغة تحوّلًا من دلالة اللسان إلى دلالة الحدث الخطابي في شكله التركيبي، مما يُبرّر حضور النزعة العقلية في الانزياح اللغوي التركيبي وما يصاحبه من تحول دلالي معنوي، وقضية التحوّل الدلالي معطى كوني في نطاق الظاهرة اللغوية عامة، فهو استنادها إلى العقل واقتضاؤها حضوره في ربط شبكة العلائق الدلالية بين الوضع الأول والأوضاع الطارئة، وهي متصلة في نطاق جهاز الكلام بمحور الاستبدال المستند إلى الرصيد المعجمي. وذلك ما يمثّل ما يسمّى بظاهرة التحوّل الدلالي سواء ما اتصل منه بالوظيفة المرجعية في الخطاب أو ما اتصل بالوظيفة الإنشائية. وهنا يمكن طرح التساؤلات التالية: هل كانت علاقة الدال بالمدلول في اللغة العربية مبرّرة؟ فإذا كان الأمر كذلك، فما هي مسوغات التبرير التي يعتمدها التفكير اللساني العربي في إثبات ذلك؟

1/ نشأة اللغة العربية:

رد في كتب الأثر بأن أوّل من وضع الإرهاسات الأولى للغة العربية هو أبو الأسود ظالم بن عمرو الدؤلي (ت69هـ). ومن الذين ذكروا ذلك في مؤلفاتهم من علماء اللغة القدامى الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ)⁽¹⁾، وأبو عبيدة معمر بن المثنى (ت209هـ)⁽²⁾، ومن القراء عاصم بن أبي النجود (ت127هـ)⁽³⁾.

ونقل الإجماع أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خَلِّكَان (ت681هـ) عن أبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني (ت384هـ) عن أبي العباس محمد بن يزيد المبرد (ت285هـ) على أن أول من وضع العربية أبو الأسود الدؤلي⁽⁴⁾، وقد وصف عربيته، فقال: «لما وضع أبو الأسود الدؤلي النحو؛ قال: ابغوا لي رجلا، وليكن لقنا، فطلب الرجل، فلم يوجد إلا في عبد القيس، فقال أبو الأسود: إذا رأيتني لفظت بالحرف، فضممت شفتي؛ فاجعل أمام الحرف نقطة، فإذا ضممت شفتي بغنة؛ فاجعل نقطتين، فإذا رأيتني قد كسرت شفتي؛ فاجعل أسفل الحرف نقطة، فإذا كسرت شفتي بغنة؛ فاجعل نقطتين، فإذا رأيت قد فتحت شفتي فاجعل على الحرف نقطة، فإذا فتحت شفتي بغنة؛ فاجعل نقطتين»⁽⁵⁾.

وقال أيضا: «الشكل الذي في الكتب من عمل الخليل، وهو مأخوذ من صور الحروف فالضمة واو صغيرة الصورة في أعلى الحرف لثلاثا تلتبس بالواو المكتوبة، والكسرة ياءٌ تحت الحرف، والفتحة ألفٌ مبطوحةٌ فوق الحرف»⁽⁶⁾.

ومن أقدم من وثّق نحو أبي الأسود بدقة محمد بن سلام الجمحي (ت232هـ)، فقال: «كان لأهل البصرة في العربية قدمة، وبالنحو ولغات العرب والغريب عناية. وكان أوّل من أسس العربية، وفتح بابها، وأنهج سبيلها، ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلي، وهو ظالم بن عمرو بن سفيان ... وكان رجل أهل البصرة، وكان علوي الرأي ... وإنما قال ذلك حين اضطرب كلام العرب، فغلبت السليقة، ولم تكن نحوية، فكان سراة الناس يلحنون في وجوه الناس، فوضع باب الفاعل والمفعول به والمضاف، وحروف الرفع والنصب والجر والجزم»⁽⁷⁾.

وبنحو قول ابن سلام قال أبو بكر الرُّبَيْدِي (ت379هـ)، وأضاف: «قال أبو علي إسماعيل بن القاسم بن عَيْنُون بن هارون القالي، ثم البغدادي: حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن السَّرِّي الرَّجَّاج النحوي، قال: حدثنا أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي، قال: أوَّلُ مَنْ وضع العربية ونقط المصاحف أبو الأسود ظالم بن عمرو»⁽⁸⁾.

وأول عمل تطبيقي قام به أبو الأسود الدؤلي هو نقط المصحف بالنحو كما قال أبو الحسن علي بن محمد المدائني (ت224هـ): «أمر زياد أبا الأسود الدؤلي أن ينقط المصاحف فنقطها ورسم من النحو رسوما، ثم جاء بعده ميمون الأقرن فزاد عليه في حدود العربية، ثم زاد فيها بعده غنيسة بن معدان المهري، ثم جاء عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي وأبو عمرو بن العلاء فزادا فيه، ثم جاء الخليل بن أحمد الأزدي وكان صليبة فلهب الطريق. ونجم علي بن حمزة الكسائي مولى بني كاهل من أسد فرسم للكوفيتين رسوما هم الآن يعلمون عليها»⁽⁹⁾.

وقد بدأت قصة النحو ساذجة بسيطة، كبداية كل الأمور العظيمة، وكانت ألصق بضبط النص منها بالتفكير في تكوين اللغة العربية باعتبارها هيكلًا وبنية. كان أبو الأسود قاضيا بالبصرة في خلافة علي بن أبي كرم الله وجهه، وكان والي البصرة من قبل علي هو زياد بن أبيه (الذي انحاز بعد مقتل علي إلى معاوية فسمى زياد بن أبي سفيان). وكان أبو الأسود من القرّاء يحرص أشدّ الحرص على سلامة النص القرآني، ويألم كما يألم القرّاء جميعا عند سماع اللحن في القراءة. وسواء أكان الدافع الذي دفع أبا الأسود تكليفا من علي أو من زياد أم كان دافعا شخسيا من تلقاء نفسه أوجده عند أبي الأسود وعيه بأبعاد قضية اللحن أو سماعه هذا اللحن على لسان ابنته (تختلف الروايات في حقيقة ذلك)، لا خلاف بين الناس على ربط القصة كلها بشخص أبي الأسود، كما لا يختلفون حول نقط المصحف باعتباره الخطوة الأولى في رحلة النحو العربي⁽¹⁰⁾.

فالعربية ارتبطت في نشأتها بالنص، وكانت تسمى الحروف الثلاثة؛ كما جاء في الأثر عن بريدة بن الحبيب الأسلمي - رضي الله عنه - (ت63هـ)، قال: «كانوا يؤمرون - أو كنا نؤمر - أن نتعلم القرآن، ثم السنة، ثم الفرائض، ثم العربية: الحروف الثلاثة، قال: قلنا: وما الحروف الثلاثة؟ قال: الجر [وفي رواية: الخفض]، والرفع، والنصب»⁽¹¹⁾. وهو يشبه ما

يسمى حديثا بالمدخل الضمني في تدريس النحو الذي تتبناه النظرية اللسانية الخليلية الحديثة وقد علّل الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح سبب تسميتها بالحديثة، فقال: «وألُفْتُ نظرَ القارئ الكريم إلى أن النظرية الخليلية سُمِّيت حديثة؛ لأنها قراءة جديدة لكتاب سيبويه وما تركه الخليل؛ فهي تلجأ إلى منهج جديد لذلك، ولهذا المنهج أصول، أهمها هو الامتناع البات عن إسقاط مفاهيم المتأخرين من النحاة أو اللسانيين من المحدثين على أقوالهما، والثاني: هو الاعتماد أساساً على طريقة دقيقة جداً لاستنباط معاني النصوص؛ أي ما قصده بالفعل الخليل وسيبويه، وهي مقايضة دلالية بين السياقات»⁽¹²⁾.

وينحصر المنهج العلمي الصحيح في هذه المقايضة الدلالية التي أسماها عبد الرحمن الحاج صالح أيضاً المقابلة الدلالية⁽¹³⁾ في شيئين اثنين:
أ- المسح الكامل الشامل للنص المراد تحليله.
ب- الاكتفاء بهذا النص وحده في التحليل إذا كان طوله يسمح بذلك.

والمبدأ الذي بُني عليه هذا المنهج: هو أنّه لا يفسر كتاب سيبويه من بين الكتب إلا كتاب سيبويه؛ وذلك للوصول إلى المقاصد الحقيقية التي قصدها بالفعل في نصه محل التحليل. كما لخص الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح الهدف من النظرية الخليلية الحديثة، فقال: «نستطيع أن نقول بأن التقدم الذي نريد أن نحققه في علوم اللسان النظرية والتطبيقية، وفي علم العربية خاصة لن يتم في نظرنا إلا بتحقيق شيئين اثنين: أولاً الاختبار المتواصل لجميع النظريات بالتكنولوجيا الحديثة، وثانياً الرجوع إلى التراث الأصيل (وترك غير الأصيل)، مع مواصلة البحث انطلاقاً مما تركه لنا علماؤنا القدامى المبدعون.

وقد سرنا على هذا الطريق معشر الباحثين في معهد العلوم اللسانية مع عدد كبير من الإخوان في المشرق والمغرب. وقد سميت هذه الجهود الخاصة بالتراث النظرية الخليلية الحديثة فنعم التسمية. ورجاؤنا من الله هو أن تكون عند حسن ظن من لقبها بذلك وبالله التوفيق»⁽¹⁴⁾.

وربما كانت هنالك ثلاثة من العوامل المؤثرة في نشأة النحو، والدافعة إلى دراسة اللغة العربية دراسة منظمة لاستخراج قواعدها، أي دراسة مضبوطة بالمعنى الذي أفاده الضبط عند

الكلام عن خصائص العلم؛ ثم دراسة مفردات متنها فيما وراء القواعد دراسة إن اتسمت بالموضوعية لارتباطها بما يفرضه الموضوع من النتائج فهي لم ترق إلى مستوى الصناعة لأنها اعتمدت على الاستقراء التام، ووصلت إلى نتائج لا يمكن التحقيق بالمنهج العلمي من صدقها ولم ترتبط بمبدأ الحتمية ولا بالتعقيد. تلك هي الدراسة التي نعرفها اليوم باسم "فقه اللغة". والعوامل الثلاثة هي: العامل الديني والعامل القومي والعامل السياسي. ولقد كان للعاملين الديني والقومي تقدّم في الزمان على العامل السياسي، ولكن هذا العامل السياسي - فيما أرى - لم يكن أقلّ منها دفعا إلى إقامة صرح النحو العربي⁽¹⁵⁾.

ويرى رمضان عبد التواب أنه: عندما بدأ قدامى اللغويين العرب، في تدوين اللغة، مع غموض معاييرهم، وجدناهم يقسمون تلك اللغة إلى أقسام: القرآن الكريم، والحديث الشريف والشعر، ونثر العرب.

أمّا القرآن الكريم؛ فقالوا: إن كل رواياته فصيحة، حتى الشاذ منها، ولو أنه لا يقاس عليها، وأمّا الحديث؛ فيرفضون الأخذ به في الاستشهاد على مسائل النحو، محتجّين بأنه قد سمحت الرواية فيه، بمعناه لا بلفظه، كما أن بعض رواته كانوا المولّدين. وهذه حجة واهية بالطبع، فإن رواة الأحاديث كانوا يعيشون في حيز عصور الاحتجاج. وحتى لو سلمنا جدلا بأنهم رَوَوْا الأحاديث بالمعنى، وصاغوها بعباراتهم، فإنهم ممن يحتجّ بلغتهم.

وقد أجمع علماء اللغة، على أن شعراء الطبقتين الأوليين، يحتجّ بشعرهم، بغير نزاع. أمّا الطبقة الثالثة، فمعظم اللغويين يرون صحة الأخذ بشعر هذه الطبقة، غير أن بعضهم كان يأبى الاحتجاج به، وأمّا الطبقة الرابعة، فقد رفض اللغويون الاحتجاج بشيء من شعرها فيما عدا الزمخشري الذي أجاز ذلك.

ولكنهم حين تعرّضوا للنثر، رأيناهم يسلكون مسلكا مخالفا لذلك، فهم يختلفون في الفصيح منه، وغير الفصيح، ويضعون قوائم بأسماء القبائل، التي يصحّ أخذ النثر عنها؛ ففي القرن الرابع الهجري، نجد أبا نصر الفارابي (المتوفى سنة 350هـ) يضع قائمة بأسماء قبائل معينة. وقد جاء بعده من هذا حذوه، أو نقل عنه، حتى جاء ابن خلدون، الذي سار على هديه في ذلك⁽¹⁶⁾.

2- تداول مصطلح (ما وراء اللغة/Métalangue):

يتميّز اللسانيون بين اللغة كوسيلة اتصال، التي يلاحظها ويحللها اللغوي ويقعدها النحوي وهي موضوع دراسة اللساني، وتسمى بـ (اللغة الهدف) أو (اللغة الموضوع)، وبين اللغة التي يستعملانها في وصفها وتحليلها، والتي تسمى اللغة الواصفة أو "ما وراء اللغة". وتنحصر وظيفة (ما وراء اللغة) بوصف اللغات الطبيعية على أدق وجه ممكن.

ومن اللغويين من يعدّ العبارات المفسرة لبعض المفردات في الحوارات اليومية تنتمي إلى (ما وراء اللغة) وهذا الأمر يستدعي التأمل، ومن أهم مصادقيها الاختصارات والرموز التي يلجأ إليها اللسانيون للتعبير عن المصطلحات مثل (ج = جملة، مف = مركب فعلي، ل = لغة أولى... الخ) وهي لغة مشتقة ومغايرة للغة الطبيعية. وهي لغة صورية تجريدية رمزية تشبه لغة المناطق ورموزهم في تحليل القضايا. وهي تحقّق الدقة في الوصف⁽¹⁷⁾.

وقد تطرّق اللغويون العرب إلى التفكير في الكلام من حيث هو كلام، أي في الظاهرة اللغوية كونيّا. ولئن ورد ذلك جزئيا في منعطفات علوم اللغة العربية وخاصة عندما فلسفوا منشأ نظامها وقواعدها فوضعوا علم أصول النحو فإنهم دونوا ذلك خصوصا في جداول تراثهم الآخر غير اللغوي أساسا. وما خلفوه لنا في هذا المضمار يكشف لنا بجلاء أنهم ترقّوا في بحوثهم اللغوية من مستوى العبارة وهو مستوى اللغة مجسّدة في أنماط من الكلام قد قبلت فعلا. إلى مستوى اللغة وهي في مقامهم اللغة العربية، واللغة مفهوم يعكس الأنظمة المجردة التي تصاغ على منوالها العبارة، إلى مستوى الكلام أي الحدث اللساني المطلق من حيث هو ظاهرة بشرية عامة⁽¹⁸⁾.

وقد توصّل الباحثون، بفضل الدراسات البيولوجية حول الجهاز العصبي والتشريجات التي أجريت على الدماغ، إلى أن الجسم يتكون من أجهزة وأعضاء كثيرة يقوم كل منها بالوظائف المنوطة به؛ ونظرا لاختلاف هذه الوظائف عن بعضها البعض، وارتباطها فيما بينها في الوقت نفسه، كان من الضروري أن يكون هناك جهاز أعلى يشرف على هذه الوظائف المختلفة ويضبطها وينسق فيما بينها.

هذا الجهاز الأعلى هو الجهاز العصبي. فإذا نحن استثنينا الأفعال الانعكاسية (actes reflexes) التي لا دخل فيها للإرادة، فإن كافة الأنشطة التي يشهدها جسم الإنسان تمرّ عبر هذا الجهاز. فهو لا يكتفي بالتدبير والتنسيق بين مختلف وظائف الأعضاء الأخرى، بل هو منبع الفكر واللغة، إذ هو الذي يبدأ ويسيطر على كافة الحوادث التي تحصل في أثناء العملية اللغوية. بتعبير آخر، إنسانية الكائن البشري تكمن تحديدا في هذا الجهاز الفريد⁽¹⁹⁾.

ومن هنا يمكن القول بأن الحركات والإشارات المصاحبة للعملية اللغوية، وغير اللغوية الموظفة في عملية الاتصال بين بني البشر، تصدر عن مركز واحد الجهاز العصبي وتصل إلى الأعضاء عن طريق السيالة العصبية، لتؤدي وظائف وأغراض كثيرة في العملية التواصلية والتفاعلية بين الناس.

ليصبح التواصل الإيعازي والإشاري بواسطة أعضاء جسم الإنسان من غير اللسان يقوم على معايير وقوانين إلهامية تحقّق الهدف المقصود من التواصل بإشارات غير لغوية متعارف عليها سلفا، بأيسر الطرق والسبل المختصرة في الوسط الاجتماعي الذي تحيا فيه والذي أوجدها، لكن قد يكتنفها بعض الغموض لدى الغرباء عن ذلك الوسط.

فإذا كان النحو صناعة فهو بالضرورة بنية مجردة ذات علاقات داخلية عضوية وإذا كانت المعرفة تكتسب بمداومة الاطلاع ويتوقف الوصول إليها بتوقف هذا الاطلاع، فإن الصناعة تكتسب بالتدريب حتى تصبح ملكة في النفس تتمكن بالتطبيق المستمر ولكنها لا تزول بعدهم فيما يبدو⁽²⁰⁾.

وكذا التواصل الإشاري والإيعازي يصبح معهودا بين الجماعة البشرية بالممارسة والمعاودة المستمرة في التواصل الاجتماعي من أجل تحقيق الأغراض المرجوة من ذلك التواصل، سواء في ميدان المعاملات والمبادلات أم في مجال اكتساب المعلومات والمعارف، ولكنه يقلّ في ميدان الإبداع المكتوب، لذلك بقي حبيسا في مجال الشفهي، رغم أنه يستعان به في توضيح المكتوب وتلقين المعارف المكتوبة أيضا.

واللغة عندما تريد علمنة ذاتها تصبح حركتها الداخلية مضاعفة ومزدوجة؛ لأنها تتحرك بالمخاض الداخلي لتوليد المصطلحات بواسطة تحويل المواضع - وهو ما تفعله مع كل العلوم - ثم تتحرك إذ يدور الكلام فيها على نفسه - حسب عبارة أبي حيّان التوحّيدي - وهو ما يوافق وظيفة ما وراء اللغة تبعا لمصطلحات اللسانيات المعاصرة. وبهذا التولّد المزدوج يصبح المصطلح اللساني المشتق من اللغة لعلمنة اللغة ضاربا أقصاه في التجريد لأنه يرتقي إلى مرتبة الكليات⁽²¹⁾.

"فيحتاج فيما حدث في النفس من كليات الألفاظ وقوانين الألفاظ إلى ألفاظ يعبر بها عن تلك الكليات والقوانين حتى يمكن تعليمها وتعلّمها، فيعمل عند ذلك أحد شيئين: إما أن يخترع ويركب من حروفهم ألفاظ لم ينطق بها أصلا قبل ذلك، وإما ينقل إليها ألفاظ من ألفاظهم التي كانوا يستعملونها قبل ذلك في الدلالة على معان أخرى غيرها: وإما كيف اتفق لا لأجل شيء ما، وكل ذلك ممكن شائع لكن الأجود أن تسمى القوانين بأسماء أقرب المعاني شَبها بالقوانين بأن ينظر أي معنى من المعاني الأول يوجد أقرب شَبها بقانون من قوانين الألفاظ فيسمى ذلك الكلّي وذلك القانون باسم ذلك المعنى حتى يؤتى من هذا المثل على تسمية جميع تلك الكليات والقوانين، بأسماء أشباهها من المعاني الأول التي كانت عندهم أسماء"⁽²²⁾.

مما سبق يمكن القول بأن مصطلح "ما وراء اللغة" (Métalangue) حديث الاستعمال نسبيا بالمصطلح الدقيق، لكنه ضارب بجذوره في الدرس اللغوي العربي القديم، ولما ظهرت ما يسمى بالدراسات اللسانية الحديثة حجز هذا المصطلح مكانه الخاص في الدرس اللساني الحديث والمعاصر الغربي والعربي، ورغم تنوع وثرأ المصطلحات المعبر بها عنه، والوظائف المنسوبة له في السياقات اللغوية المتعدّدة، تبقى الغاية منه من قبيل الأشباه والنظائر، فهي تكاد تكون تدور في شبكة دلالية موحدة، وكل الاشتقاقات التي وجدت حول المصطلح في مختلف اللغات متقاربة.

3- تعدد المصطلح الدال على مفهوم "ما وراء اللغة" في الدراسات اللغوية الحديثة:

وضعت عدة ترجمات لمصطلح (Métalangue) "ما وراء اللغة" في الدراسات العربية، وهي في معظمها تحوم حول المعنى الاشتقاقي للمصطلح، ووظفت في تراكيـب سياقية متماثلة، حيث وردت كلمات عربية متعددة مقابلة للأصل الغربي ومن أبرزها: اللغة الواصفة وما وراء اللغة، والجدول التالي يرصد معظم الترجمات الوافـد من أصل غربي إلى العربية:

المصطلح الغربي	المصطلح العربي المترجم	الباحث المترجم
Métalangue	ما وراء اللغة	عبد السلام المسدي: 1- التفكير اللساني في الحضارة العربية. الكتاب الجديد-ليبيا، ط2/2009. 2- ما وراء اللغة بحث في الخلفيات المعرفية، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله للنشر-تونس، د.ت، د.ط.
Métalangue Métalinguistique	متن اللغة، لغة انعكاسية لساني انعكاسي	يوجين نيدا: نحو علم للترجمة، تر: ماجد النجار، وزارة الاعلام-العراق 1976.
Métalinguistique	الوراء لساني، الوراء لسان، وراء لسانية.	روبير مارتان: مدخل لفهم اللسانيات ، تر: عبد القادر المهيري، المنظمة العربية للترجمة - بيروت، ط1/2007.
Metalinguistics	علم اللغة الواصفة علم ما وراء اللغة علم اللغة الماورائي	محمد علي الخولي: معجم علم اللغة النظري، مكتبة لبنان 2009.
Metalingual Function	الوظيفة اللغوية الشارحة الوظيفة اللغوية العليا	دانيال تشاندلر: معجم المصطلحات الأساسية في علم العلامات (السيميوطيقا) تر: شاكـر عبد الحميد، أكاديمية الفنون مصر، د.ت، د.ط.
Metalanguage	ما وراء اللغة ما فوق اللغة ميتا لغة لغة واصفة	جورج مونان: معجم اللسانيات، تر: جمال الحضري

بريجيته بارتشت: مناهج علم اللغة من هرمان باول حتى ناعوم تشومسكي، تر: سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار- القاهرة، ط1/2004.	اللغة الواصفة	Metalanguage
--	----------------------	---------------------

من خلال هذا الجدول يتبين أن الترجمات العربية لمصطلح (Métalangue) انحصرت عبارات لا في مفردات مستقلة، أي بمعنى ترجم المصطلح الغربي المركب (Métalangue) إلى تركيب عربي أيضا، أحيانا ثنائي وأحيانا أكثر من ذلك، وهناك من عزّبه مباشرة دون أي تغيير، وهذه الترجمات في عمومها تؤول إلى معنى متقارب في الدلالة والتداول.

4- الفروق الجوهرية بين دراسة اللساني لغة ودراسة غيره من المهتمين بها:

اللساني يدرس اللغة كهدف في حدّ ذاته، أي أنه يحرص هم في إشباع ميوله العلمي والبحث عن القوانين التي تنظم اللغة، أما أهل الاختصاصات الأخرى فيدرسون اللغة كوسيلة ليتمكنوا من فهم بعض الجوانب في تخصصاتهم لها علاقة باللغة؛ فعالم النفس مثلا يسعى من وراء دراسته للغة إلى حصر الجوانب النفسية في الإنسان التي تمكنه من استعمال اللغة... الخ.

اللغة وسيلة كلّ العلماء في دراستهم، ولا يمكن لأي عالم الاستغناء عنها لأنها وسيلة التواصل، فاللغة هي الشيء الوحيد الذي يصف ويحلل الخبرات البشرية بكفاءة جد عالية وبأقل التكاليف، وفي الآن نفسه تصف وتحلل نفسها. فعندما أقوم بشرح تركيب جملة ما فأنا أبدأ إلى كلمات من اللغة: كالفاعل والفعل والأداة⁽²³⁾، ولا يمكنني على سبيل المثال الاعتماد على معادلات رياضية فقط، وعلى التقيض من ذلك لا تستطيع الرياضيات -وهي العلم الأكثر دقة وتجريدا- من وصف نماذجها باستعمال الرموز الرياضية فقط، فلا يوجد كتاب أو درس في الرياضيات لا يستعمل اللغة العادية في الشرح والتحليل.

اللساني يدرس اللغة بمناهجه الخاصة؛ التي ابتكرها بعد ملاحظة وسير قوانين اللغة فبعد أن أدرك أن اللغة تتطور عبر الزمن، ابتكر المنهج التطوري أو التاريخي diachronique، وبعد أن أدرك أن اللغة قوانين تنظم عناصرها؛ ابتكر المنهج الآني أو الوصفي Synchronique وبعد أن أدرك أن اللغة علاقات قرابة تربطها باللغات الأخرى، ابتكر المنهج الفيلولوجي أو

المقارن *comparée*، وبعد أن أدرك أن اللغة جانباً مادياً يتمثل في سلسلة الأصوات المنطوقة وآخر نفسياً يتمثل في المعنى؛ ابتكر المنهج التحويلي التوليدي... الخ، أما أهل الاختصاص الآخرين فيدرسون اللغة بمنهج علومهم؛ لذا جاءت نتائج دراساتهم أقل عمقا ودقة؛ لذا أخذت العلوم الإنسانية في تطبيق المناهج اللسانية البنوية⁽²⁴⁾ لدقتها العالية، التي جعلت اللسانيات تصنف في قائمة العلوم الطبيعية؛ وذلك لما بلغته من الدقة والضبط والموضوعية والشمول، مما أتاح لها أن تتبوأ مكاناً عالياً بين العلوم، بل لقد أخذت اللسانيات زمام المبادرة في هدم الأسوار التقليدية -التي أقيمت بلا مبرر علمي واضح- بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية⁽²⁵⁾.

خاتمة:

من خلال ما تقدم يمكن القول بأن اللغة العربية، وجدت قبل وجود القاعدة المكتوبة المعيار النحوي المحدد لها؛ فهي سابقة لعلم النحو بفروعه، حيث كانت لغة سماع وتداولية واتصال تكاد تكون خالية من اللحن بحسب رأي مؤرخي اللغة العربية.

وبتطور المجتمع العربي وفتحه على العوالم المجاورة له، بعد نزول الوحي أصبح العربي يحمل رسالة عالمية، بدأ يتسرب اللحن لعربيته بسبب الأعاجم الموالي الذين دخلوا في الإسلام وأخذوا الشروع في اكتساب اللغة العربية لغة الدين والعبادة.

ومنذ ذلك العهد ظهرت بوادر النحو بفروعه، من أجل كبح جماح اللحن والعجمة ومنعهما من اختراق صفوف العربية المنظمة. فوضعت القواعد وأشكل القرآن، وبدأت قواعد الضبط في الانتشار التوسع، مع اكتشاف الخط العربي والكتابة.

وكان أخذ القاعدة النحوية يقوم على الشاهد سماعاً من رواة ثقافات، فبدأ الوضع في العربية وأصولها، وكان كل ذلك بدقة فائقة تناغم تام مع ما يتماشى واقع العربي المعيشي فمثلاً لما الذين يعملون في نظام الأسرة العربي أقل من الذين يعملونهم، جاءت المرفوعات أقل من المنصوبات في كلامهم.

وقد أجمع الكثير من الباحثين على أن اللغة العربية هي الأقدر على حمل المعاني من غيرها، حيث لا يحيد اللفظ العربي الفصح ولا يعجز عن مراد قائله أبدا، مهما تغير الأسلوب أو التركيب أو تعددت الأغراض، وهذا ما يعزز دقة القاعدة النحوية التي تضبطه.

كما أن اللفظ العربي لا يموت ولا يندثر حتى ولو ضعف من ينطق به، فهو يخزن بآنيته شحنة دلالية لا تنضب، بتغير الموقع أو المركز في النص، وبذلك يصبح قادرا على تخطي عاملي الزمان والمكان، فيمكث خالدا في الوجود، كيف لا. وهو من يفصل به بين البريئة يوم الحساب وهو لغة تواصل أهل الجنة.

إن الأصوليين والنحاة، قد وضعوا كل ما يخدم اللغة العربية من قواعد النحو العربي، بعناية فائقة تسهل الإبحار في اللغة تعلمها وفهما، وتمنعها من اللحن والعجمة حفظا وسلامة، ولا أدل على ذلك من وضع الاسم الدخيل على اللغة العربية ضمن الممنوعات من الصرف بسبب عجمته.

الهوامش والإحالات

- (1) - أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين، تحقيق مهدي الخزومي وإبراهيم السامرائي دار ومكتبة الهلال، بيروت، د ت، (302 / 3).
- (2) - حسن إلى أبي عبيدة: رواه أبو طاهر المقرئ في "أخبار في النحو" (ص/ 33-34)، وأبو بكر ابن الأنباري في "إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل" (1 / 43 - 44)، وعنه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (25 / 194)، ورواه ابن الجوزي في المنتظم (6 / 97 - 98)، وغيرهم.
- (3) - أثر حسن: رواه أبو بكر الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء (1 / 42-43)، وأبو طاهر المقرئ في أخبار في النحو (ص/ 34-35)، وأبو الفرج الأصبهاني في كتاب الأغاني (12 / 481-483)، وأبو سعيد السيرافي في أخبار النحويين البصريين (ص/ 35)، وأبو بكر الزبيدي في طبقات النحويين واللغويين (ص/ 22)، وأبو أحمد العسكري في المصون في الأدب (ص/ 118)، وأبو هلال العسكري في الأوائل (2 / 115)، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (25 / 189-194)، وابن الجوزي في المنتظم (6 / 98) والذهبي في تاريخ الإسلام (5 / 279)، وسير أعلام النبلاء (4 / 84).

- (4) - كتاب "المقتبس في أخبار النحويين" لأبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني (ت384هـ) كتاب حفيظ يقال له مسند النحويين، ولكنه في عداد المفقود، لم يبق منه إلا ما اختصره منه بدون إسناد أبو المحاسن اليعموري في "نور القبس المختصر من المقتبس"، أو ما تنأثر منه في ثنايا الكتب.
- (5) - المحكم في نقط المصاحف لأبي عمرو الداني (ص/ 6-7).
- (6) - صناعة الكتاب للنحاس (ص/ 154)، والمحكم في نقط المصاحف لأبي عمرو الداني (ص/ 7).
- (7) - طبقات فحول الشعراء (1/ 12).
- (8) - طبقات النحويين واللغويين (ص/ 21).
- (9) - كتاب الأغاني (12/ 482).
- (10) - ينظر، تمام حسان: الأصول، دراسة إبستمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي (النحو، فقه اللغة البلاغة)، الشركة الجديدة، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، (1401هـ/1981م)، ص32.
- (11) - معناه صحيح وسنده موضوع: رواه جعفر المستغفري (ت432هـ) في "فضائل القرآن" (1/ 187) والخطيب البغدادي (ت463هـ) في "الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع" (2/ 10)، وأحمد الأندلسي (ت بعد 500 هـ) في "الإيضاح في القراءات" (2/ 43)، والقاضي عياض (ت544هـ) في "الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع" (ص/ 215-216)، وأبو العلاء العطار (ت569هـ) في "التمهيد في معرفة التجويد" (ص/ 178)، وعبد الكريم القزويني (ت623هـ) في "التدوين في أخبار قزوين" (2/ 434-435).
- (12) - مجلة الفيصل، العدد 407-408، دار الفيصل الثقافية، الرياض، 1431هـ/2010م، (ص/ 61).
- (13) - ينظر، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية (18/1).
- (14) - بحوث ودراسات في اللسانيات العربية (289/1).
- (15) - ينظر، حسان تمام: الأصول، ص22.
- (16) - ينظر، رمضان عبد التواب: فصول في فقه العربية، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط3، سنة 148هـ/1987م، ص(97/101/103).
- (17) - ينظر، ماري نوال وغازي بريو: المصطلحات المفاتيح في اللسانيات، تر: عبد القادر فهم الشيباني ط2007/1، سيدي بلعباس-الجزائر، ص(69/70).
- (18) - عبد السلام المسدي: التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، د ط سنة 1981م، ص24.
- (19) - عبد الفتاح بنقدور: اللغة، دراسة تشريحية-إكلينيكية، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، المغرب، ط1، سنة 2012م، ص213.

- (20)- ينظر، تمام حسّان: الأصول، ص68.
- (21)- ينظر، عبد السلام المسدي: التفكير اللساني في الحضارة العربية، ص(206/205).
- (22)- أبو نصر محمد الفارابي: الحروف، حقّقه وقَدّم له وعلّق عليه محسن مهدي، دار المشرق، بيروت، لبنان د ط، سنة 1968م، ص(148/147).
- (23)- ينظر، حسن أبي عبيدة: رواه أبو طاهر المقرئ في "أخبار في النحو" (ص/33-34)، وأبو بكر ابن الأنباري في "إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل" (ج1/ص43 - 44)، وعنه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (25 / 194)، ورواه ابن الجوزي في المنتظم (ج6 / 97 - 98)، وغيرهم. تسمى لغة التحليل العلمي التي ندرس ونشرح بواسطتها اللغة في عرف اللسانيين؛ باللغة الواصفة أو الشارحة أو اللغة العليا، أو ما وراء اللغة، وهي اللغة المستعملة في الصوتيات والنحو والإعراب....الخ.
- (24)- يطلق مصطلح لسانيات بنوية على لسانيات القرن العشرين؛ التي تأثرت بأفكار سوسير في أوروبا (وبأفكار بلومفيلد في أمريكا) تمييزاً لها عن لسانيات ما قبل القرن العشرين؛ التي طغى عليها الجانب العقلي كما نلمس ذلك عند اتباع مدرسة بورويال أو الجانب التاريخي المقارن -الفيلولوجي- كما نلمس ذلك في اللسانيات الأوروبية في القرن التاسع عشر؛ عند مدرسة النحاة الشبان أو الجدد كما يسميهم البعض.
- (25)- ينظر، بيرش رضا: محاضرات في اللسانيات النظرية والتطبيقية، دار المعارف الجزائرية، ط1، 2012 الجزائر، ص(11/8).

قائمة المصادر والمراجع

- 1- ابن الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم: إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل، تح: محيي الدين عبد الرحمن رمضان، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، سوريا، ط1، سنة (1390هـ/1971م).
- 2- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تح: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1412هـ/1992م)
- 3- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن (ت 571هـ): تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: علي شيري دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، سنة (1415هـ/1995م).
- 4- أبو طاهر المقرئ، إسماعيل بن أحمد السمرقندي (ت 370هـ): أخبار في النحو، تح: إبراهيم السامرائي، دار الحرية للطباعة، بغداد، العراق، سنة (1975م).

- 5- أبو العلاء العطار، الحسن بن أحمد: التمهيد في معرفة التجويد، تح: غانم قدوري الحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، سنة (1421هـ/2001م).
- 6- الأصبهاني، أبو الفرج علي بن الحسين: كتاب الأغاني، تح: إحسان عباس وإبراهيم السعافين وبكر عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ط3، سنة (2008م).
- 7- الأندراي، أحمد بن علي: الإيضاح في القراءات، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط1، سنة (1420هـ/1999م).
- 8- بريو، غازي وماري نوال: المصطلحات المفاتيح في اللسانيات، تر: عبد القادر فهمم الشيباني، دار الأمل للطباعة والنشر، سيدي بلعباس، الجزائر، ط1، سنة (2007م).
- 9- بنقدور، عبد الفتاح: اللغة، دراسة تشريحية-إكلينيكية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، المغرب، ط1، سنة (2012م).
- 10- بيرش، رضا: محاضرات في اللسانيات النظرية والتطبيقية، دار المعارف، الجزائر، ط1، (2012).
- 11- التواب، رمضان عبد: فصول في فقه العربية، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط3، سنة (1408هـ/1987م).
- 12- الجمحي، محمد بن سلام (ت 231هـ): طبقات فحول الشعراء، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، السعودية، د ط، سنة (1974م).
- 13- حسان، تمام: الأصول، دراسة إبستمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي (النحو، فقه اللغة البلاغة)، الشركة الجديدة، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، سنة (1401هـ/1981م).
- 14- حسان، تمام: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت لبنان، ط1، سنة (2009م).
- 15- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تح: محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، السعودية، سنة (1403هـ/1983م).
- 16- الداني، أبو عمرو عثمان بن سعيد: المحكم في نقط المصاحف، تح: عزة حسن، دار الفكر دمشق، سوريا، ط2، سنة (1407هـ/1986م).
- 17- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، سنة (2003م).
- 18- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد: سير أعلام النبلاء، تح: شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط3، سنة (1405هـ/1985م).

- 19- الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن: طبقات النحويين واللغويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2، سنة (1973م).
- 20- السرياني، أبو سعيد الحسن بن عبد الله: أخبار النحويين البصريين، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، مصر، ط1، سنة (1374هـ/1955م).
- 21- العسكري، أبو أحمد الحسن بن عبد الله: المصون في الأدب، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، سنة (1960م).
- 22- العسكري، أبوهلال الحسن بن عبد الله: الأوائل، مطبعة الترقى، دمشق، سوريا، ط1، (1975).
- 23- عياض، القاضي أبو الفضل عياض بن موسى: الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع تح: السيد أحمد صقر، دار التراث ومكتبة التراث، القاهرة، مصر، ط1، (1379هـ/1970م).
- 24- الفارابي، أبو نصر محمد بن محمد: الحروف، تحقيق وتقديم وتعليق: محسن مهدي، دار المشرق بيروت، لبنان، ط2، سنة (1990م).
- 25- الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد: كتاب العين، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، د ط، د ت.
- 26- القزويني، عبد الكريم بن محمد الرافعي: التدوين في أخبار قزوين، تح: عزيز الله العطاردي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، سنة (1408هـ/1987م).
- 27- المستغفري، جعفر بن محمد: فضائل القرآن ومعلمه وآدابه، تح: أحمد فارس السلوم، دار ابن كثير، دمشق، سوريا، ط1، سنة (1415هـ/1995م).
- 28- المسدي، عبد السلام: التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس د ط، سنة (1981م).
- 29- النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد: صناعة الكتاب، تح: بدر أحمد ضيف، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، سنة (1968م).
- 30- اليعموري، أبو المحاسن يوسف بن موسى: نور القبس المختصر من المقتبس، تح: رودلف زلهام، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت، لبنان، سنة (1964م).

المجلات والدوريات:

مجلة الفيصل، العدد 407-408، دار الفيصل الثقافية، الرياض، السعودية، (1431هـ/2010م).